حول تربية الأطفال وتعليم الجهال

للشيخ الدكتور : عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه ومن سار على نهجه .

أما بعد :

فقد كثر السؤال عن استقدام الخادمات والمربيات والمعلمات، وعملهن داخل البيوت، وفي دور التربية والحضانة وروضات الأطفال، كما كثر تناقل ما تفعله الجمعيات من اليهود والنصارى والمشركين في بلادهم، كما في أمريكا، وبريطانيا، واستراليا، وكندا، وروسيا، وهولندا، والولايات الأخرى التي تحاول عمل ما يصرف المسلمين عن أصل دينهم، حيث تحتضن الأطفال الذين فقدوا آباءهم أو من يعولهم، وقد جعلت لها مراكز في البلدان النامية، مثل : مصر، والسودان، والسلفادور، وهندوراس، وكينيا، وأوغندا، والفلبين وغيرها . وهكذا الدعاة المنصرون الذين يغزون البلاد الفقيرة، وينتهزون حاجة أهلها وعجزهم، فيفتحون بها مدارس ومعاهد ومستشفيات، ويحرصون على تنشئة الأطفال على أيديهم، ويتصرفون في المناهج العلمية، ويربون أولاد المسلمين كما شاءوا، ويلقنونهم عقائدهم الكفرية، وأديانهم المنحرفة، ولقد

نجحوا في كثير من مخططاتهم، وأضلوا أعداداً وأفراداً وجماعات كثيرة من ناشئة المسلمين ذكوراً وإناثاً . وهكذا ما يفعله الكثير من المسلمين المعجبين ـ وللأسف ـ بالكفار وعلومهم، حيث يبعثون أولادهم وفلذات أكبادهم من ذكور وإناث إلى تلك الدول المتقدمة ـ كما يعبرون ـ قاصدين منهم التربية والتدريب، وتعلم لغاتهم الراقية في زعمهم؛ فلا تسأل عن آثار ذلك ومفاسده، وأقرب ذلك وأشهره ما تؤثره تربية المستقدمين إلى بلاد المسلمين كالنساء اللاتي يتولين تربية الأطفال وحضانتهم، وكالمدربين والمعلمين في المدارس والمنازل، من أولئك الأعداء الألداء الذين يضمرون العداء للإسلام وأهله، ويحملون مذاهب هدامة، أو كفراً بواحاً، أو بدعاً منكرة مكفرة أو مفسقة، قد أشربتها قلوبهم، ولا شك أن كل أولئك على يقين من صحة ما يدينون به وأحقيته، رغم بعد ذلك عن الصواب، ولكنهم تربوا على تلك الأديان منذ الطفولة، وتلقوا عقائدهم الزائفة عمن يثقون بنصحه، ولقنهم آباؤهم ومعلموهم ما يؤكد لهم صحتها وسلامتها، وبطلان ما سواها، فتمسكوا بتلك المذاهب والنحل وعضوا عليها بالنواجذ، وزين لهم الشيطان أن الصواب في جانبهم، وأنهم على عقيدة صحيحة الأصول، قويمة الأدلة، تلقوها عمن يثقون بعلمه ونصحه، فلهذا يندر أن يتخلوا عن معتقداتهم ودياناتهم، وكيف يتحولون عن مذاهب ومعتقدات تقلدوها عن أسلافهم ومشايخهم الذين هم محل ثقة عندهم وإجلال وإكبار، فلا يتصورون أو يخطر ببال أحد منهم أن يصدر خطأ أو ضلال أو انحراف من أفراد علمائهم فضلاً عن جماعتهم .

ولا شك أن أولئك الوافدين مع رسوخ تلك العقائد في نفوسهم، ومع تمكنهم من إظهارها والدعوة إليها، متى أمنوا الضرر فلا بد أن يحرصوا بكل ما أوتوه من جهد على نشر دياناتهم، وترسيخها في نفوس من يتولون تعليمه محتسبين في ذلك الأجر والثواب، كما قال الله عنهم : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[١] لكن الدعاة إلى دين الإسلام الصحيح، وعقيدة السلف الصالح، يرجون من الله ما لا يرجو هؤلاء من التعليم أو التربية أو الحضانة . فلا تسأل عما يقومون به من بث سمومهم، ونفث شرورهم في أذهان من يحتكون بهم، أو يتولون تنشئتهم وتعليمهم، فيتلقن أولئك الأطفال والجهال ما يلقيه عليهم أولئك المربون والمدرسون من عقائد منحرفة، وبدع منكرة، مسلِّمين بصحتها، محسنين الظن بأساتذتهم ومشايخهم الذين اختارهم أولياء الأمور لهم ليتربوا على أيديهم، فيصعب بعد ذلك تخلي أحدهم عن هذه التوجيهات والتعاليم التي نشأ على استحسانها في صغره، ويخيل إليه أن من خالفها فقد خالف الصواب، ولو كان من آبائه وإخوانه أو المواطنين معه إلا من شاء الله تعالى . فلا جرم أحببت أن أكتب كلمات حول هذا الموضوع تحت هذه العناوين :

شفقة الآباء ورحمتهم بأولادهم :

لا شك أن الإنسان العاقل يهمه صلاح ولده واستقامتهم، ويتمنى سلامة فطرهم، ويسره تمسكهم بالحق وسيرهم على الصراط

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٤ .

السوي، وتخلقهم بمعالي الأخلاق وفضائل الأعمال، وعملهم بتعاليم الدين الصحيح، ويستاء ويشق عليه متى رآهم منحرفين ضالين قد خالفوا سنة الله تعالى وشرعه، وتنكبوا الطريق السوي، وارتكبوا المآثم وفعلوا الجرائم . ولقد جبل الله الوالدين على محبة الولد والشفقة عليهم والرحمة بهم، وإيثارهم بالمصالح والملذات في هذه الحياة الدينا، والخوف عليهم من أسباب العطب والهلاك، فقد حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام نداءه لابنه الذي عصى عليه، فقال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ ﴾[1] وبعد أن خرج الابن عن طاعة أبيه وتمرد عليه، لم يغفل عنه بل دعا ربه أن ينجيه بقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾[2] فهو يتذكر أن ربه تعالى وعده بنجاة أهله بقوله : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾[3] فظن أن ابنه من أهله الذين وعده الله بنجاتهم، ولكن الله تعالى عاتبه بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾[4] أي : الذين وعدناك بنجاتهم . فعُرف من هذا شفقة الوالد على ولده ولو كان عاصيا له وخارجاً عن طواعيته . وهكذا ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام مما يدل على شفقته وخوفه على ولده، ففي مقام الطلب والرجاء لما قال الله تعالى له : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن

(١) سورة هود، الآية ٤٢ .

(٢) سورة هود، الآية ٤٥ .

(٣) سورة هود، الآية ٤٠ .

(٤) سورة هود، الآية ٤٦ .

ذُرِّيَّتِي ﴾[١] فلم يغفل عن ذريته لما منحه الله هذه الإمامة التي هي جعله قدوة وأسوة لمن بعده من الناس الذين هداهم الله للإسلام، فلما وعده ربه بهذه الإمامة لم يغفل عن ذريته؛ لحرصه على صلاحهم، وأهليتهم لأن يكونوا قدوة للناس في أمر الدين الصحيح . وهكذا حكى الله تعالى عنه دعاءه لربه بقوله : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾[٢] فما غفل عن ذريته بل أشركهم مع نفسه في هذه الدعوة الصالحة، بأن يجعله مقيماً للصلاة، محافظاً عليها، وكذا ذريته؛ لما لها من أثر بليغ في صلاح الذرية واستقامتهم . وكل هذا دليل كمال الشفقة والرقة والرحمة للولد، ورجاء أن يستقيموا على الخير، ويسلكوا الصراط السوي المتمثل في إقامة الصلاة، وما تؤثره من ثمرات وأعمال صالحة . وهكذا في مقام الخوف، فقد حكى الله تعالى عنه عليه السلام قوله : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٣] فلم يقتصر في طلب النجاة من الشرك على نفسه، بل أشرك بنيه، فطلب نجاتهم من عبادة الأصنام؛ لما رأى من ضلال الكثير ـ كأبيه وقومه ـ بعبادة تلك الأخشاب والأحجار التي ينحتونها، ثم يظلون لها عاكفين، تقليداً لآبائهم وأسلافهم . وهكذا مدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾[٤] والأمر منه يستدعي

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٠ .

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٥ .

(٤) سورة مريم، الآية ٥٥ .

الطلب والحرص على التطبيق منهم للصلاة التي هي عماد الدين، والتي ذكر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة وهي حق المال . وقال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي ﴾[١] فهذا كله من تمام الحرص والشفقة على القريب الأدنى قبل البعيد من أنبياء الله تعالى ورسله، وهم القدوة والأسوة لمن بعدهم، فالأمر لهم يعم كل من دان بدينهم من أتباعهم . وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾[٢] عن ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوقظ أهله لصلاة التهجد بالليل، ويتلو هذه الآية الكريمة . فإن ظاهرها يعم صلاة الفرض والنفل . ويدخل في الأهل : الأولاد والخدم والزوجات ومن تحت كفالة الإنسان، كما ذكروا ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[٣] يعني : أنقذوهم وخلصوهم من الكفر والبدع وكبائر الذنوب وصغائرها، مما يسبب العقوبة الأخروية بدخول النار التي وقودها الناس والحجارة . فوقايتهم تستدعي الحرص على تربيتهم، وتهذيب أخلاقهم، وتلقينهم في الصغر ما يعرفون به ربهم ودينهم ونبيهم وما يلزمهم أن يدينوا به في هذه الحياة، وبيان الحسنة

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ١٣٢، ١٣٣ .

(٢) سورة طه، الآية ١٣٢

(٣) سورة التحريم، الآية ٦ .

والسيئة، وأسباب كل منهما . فالوالد والولي الناصح يبذل جهده في تقويم موليه، وفي نصحه وإرشاده، وتحريضه على الخير، وتحذيره من العاقبة السيئة؛ ليكون سبباً في نجاته وفلاحه، كما أن الله تعالى قذف في قلبه الرحمة التي تستجلب الرقة والشفقة في الدنيا، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قبل الحسن، فقال الأقرع ابن حابس : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم . فقال رسول الله ﷺ : « **إنه من لا يرحم لا يرحم** »[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ لكنا والله ما نقبل . فقال رسول الله ﷺ : « **أو أملك أن كان الله نزع منكم الرحمة** » وفي لفظ : « **أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة** »[2]، وفي حديث أسامة بن زيد أن النبي ﷺ لما رفع إليه ابن بنته، ونفسه تقعقع، ففاضت عيناه ﷺ، وقال : « **هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** »[3] فهذه الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوب الآباء يكون من آثارها الشفقة عليهم، والحرص على إيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، سيما وقت الطفولية والحاجة، وتستمر حتى الموت غالباً . فمتى كان يحب لهم الصحة والسلامة والبعد عن العطب والضرر فإن عليه أن يحرص على تقويم أولاده وتهذيب أخلاقهم، وإرشادهم إلى ما ينفعهم في الدار الآخرة ويوصلهم إلى رضوان ربهم سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه البخاري في الأدب برقم ٥٩٩٧ ومسلم في الفضائل برقم ٢٣١٨ .
(٢) رواه البخاري في الأدب برقم ٥٩٩٨ ومسلم في الفضائل برقم ٢٣١٧ .
(٣) رواه البخاري في الجنائز برقم ١٢٨٤ ومسلم في الجنائز برقم ٩٢٣ .

ما ورد في الأولاد وتأثيرهم على الآباء :

يشاهد أن الرجل متى رزق أولاداً من ذكور أو إناث فإنه ينشغل بشأنهم، ويهتم بتحصيل الرزق، ويسعى في جمع المال، ويكدح ويشقى في الطلب والتكسب، وينشغل بذلك عن التعلم والتفقه، ويؤثر البقاء والمقام معهم أو بقربهم، ولو فاتته الفضائل والأعمال الصالحة، فقد روى الترمذي عن عمر بن عبدالعزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « **إنكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون، وإنكم لمن ريحان الله** »[1] قال الترمذي : « لا نعرف لعمر بن عبدالعزيز سماعاً من خولة » أي : فهو منقطع، لكن عمر جزم به، وقد لقي في المدينة من روى عن خولة يقيناً، ومعناه أ ن محبة الولد تحمل أباه على البخل بالمال، والحرص على جمعه؛ ليخلفه لولده، أو لينفقه عليه في حياته، وكذا على الجبن الذي هو ضد الشجاعة، فلا يخرج للجهاد خوفاً من القتل وضياع أولاده، فإن خرج لم يكن معه الجرأة على الإقدام، وكذا على الجهل لإكبابه على التكسب، والانشغال بالتجارات أو الحرف، أو الأعمال التي يتحصل منها على المال، فيبقى على جهله، ويفوته التعلم والتفقه في الدين . وقوله : « **وإنكم لمن ريحان الله** » أي : كالريحان الذي هو طيب الريح؛ لأنهم يشمون ويقبلون، فكأنهم من جملة الرياحين، فقد روى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ كان يدعو الحسن والحسين

(١) هو في سننه كما في تحفة الأحوذي ٦/ ٣٧ باب ما جاء في حب الوالد لولده .

فيشمهما ويضمهما إليه[١]، وروى الطبراني في الأوسط عن أبي أيوب قال : دخلت على رسول الله ﷺ والحسن والحسين يلعبان بين يديه، فقلت : أتحبهما يا رسول الله ؟ قال : « **وكيف لا وهما ريحانتاي من الدنيا أشمهما** »[٢]، وروى البزار عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **الولد ثمرة القلب، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة** »[٣]، وروى أيضاً عن الأسود بن خلف أن النبي ﷺ أخذ حسناً فقبله فقال : « **إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة** »[٤]، وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **هل لك من ولد ؟** » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك، ولوددت أن مكانه شبع القوم . قال : « **لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجراً إذا قبضوا، ثم إنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة** »[٥]، وعن يعلى بن مرة الثقفي قال : جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ، فضمهما إليه، وقال : « **إن الولد مبخلة مجبنة** »[٦] فهذه

---

(١) كما في التحفة ١٠/ ٢٧٦ في مناقب الحسن والحسين .

(٢) ذكره الهيثمي في الفضائل من مجمع الزوائد ٩/ ١٨١ وفيه ضعف .

(٣) كما في كشف الأستار برقم ١٨٩٢ وفيه عطية العوفي وهو ضعيف .

(٤) هو في كشف الأستار برقم ١٨٩١ قال في مجمع الزوائد ٨/ ١٥٥ : « ورجاله ثقات » .

(٥) هو في المسند ٥/ ٢١١ وفي سنده مجالد بن سعيد وهو ضعيف، ويشهد له ما قبله من الأحاديث .

(٦) رواه ابن ماجه برقم ٣٦٦٦ وفي إسناده سعيد بن أبي راشد وثقه ابن حبان قال البوصيري في الزوائد ٤/ ٩٩ : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». وكذا صححه الحاكم ٣/ ١٦٤ وأقره الذهبي .

الأحاديث وما في معناها تدل على أن النبي ﷺ قد نبه الأمة على ما هو أمر طبيعي واقعي من أن الآباء في الغالب يتصفون بالجبن والبخل؛ لتأثير محبة الولد، والشفقة عليه، فإذا كانت محبة الولد ركيزة في القلب، وظهر أثرها في العمل، بشدة الطلب والجمع والتكسب، ثم الإمساك والتقتير على النفس وعلى الأهل والضيف، والتوقف عن الإنفاق في وجوه الخير، فإن من الواجب والمؤكد أن يعنى الوالد بولده في التهذيب والسعي في الإصلاح، والتعهد في الصغر وبعد الكبر؛ ليكون قرة عين لأبويه، وتثمر التربية الصالحة بالاستقامة والبعد عن الانحراف والزيغ .

أسباب كثرة الانحراف في الشباب :

المشاهد في هذه الأزمنة وقوع انحراف الكثير من الشباب عن الاستقامة، وانهماكهم في الفساد، وانغماسهم في الشهوات التي أردت بالكثير منهم، وجلبت لهم الشرور والأضرار، فعاثوا في الأرض فساداً، وأضاعوا الصلوات، وتعاطوا المسكرات والمخدرات، ولذلك أسباب ومغريات (منها) الإهمال من الآباء والأولياء، فإن أغلب الآباء ـ هداهم الله ـ منشغلون عن أولادهم، فأحدهم يذهب إلى وظيفته أو مقر عمله كل صباح، ويرجع آخر النهار، وقد لا يرجع إلى منزله حتى يؤويه المبيت، فيتقلص النهار وهو في تقليب تجارته أو حرفته وصناعته، أو في زياراته واتصالاته بأصدقائه ورفقائه، فلا يبقى لأهله إلا أقل الوقت وآخره، فهو لا يتفرغ لأهله، ولا يتفقد أعمال ولده، ولا يحدث نفسه بما يحصل لهم من بعده، فإما أن يكل تربيتهم إلى الخدم والمعلمين، وإما أن

يهملهم ويترك لهم الحبل على الغارب، بحيث يتمكنون من الذهاب والتقلب كيف شاءوا، والاختلاط بأهل الفساد والمعاصي ممن يزين لهم الوقوع في المسكرات، وتعاطي المخدرات، وشرب الدخان، وسماع الأغاني، والعكوف على النظر إلى الصور الخليعة، والإكباب على الأفلام الهابطة، والتمثيلات الماجنة، فتفسد أخلاقهم، وتنحرف طباعهم، فتثقل عليهم الصلوات، ويستصعبون حضور الجماعات، ويهون عليهم أمر جميع العبادات، ويعتادون غشيان المحرمات، وينهمكون في الفساد، وينغمسون في اقتراف الفواحش والمنكرات، فلا ينتبه ولي أحدهم إلا بعد أن تتمكن من ولده تلك العادات السيئة، وتصبح ركيزة في نفسه، يندر أن يقلع عنها مهما بذل والده من النصح والتوجيه، والتحذير والتخويف والتهديد، ومهما فعل من الضرب والحبس والتعزير، فيندم الأب ولات حين مندم، ويعض كفه على ما فرط منه من الغفلة والإهمال .

مع أن الكثير من الآباء وأولياء الأمور قد يغفلون عن أولادهم، وينشغلون بحرفهم وأعمالهم، فيصلح أولادهم، وتتولاهم عناية الله، ويحفظهم ربهم عن الأخطار والأضرار : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾[١] . كما أن من أسباب هذا الانحراف في الشباب سوء التربية، فإن الكثير من الآباء قد يتنزل على رغبة أهله وولده عندما يتضجرون أمامه، ويشتكون الفراغ والتحجر والتضييق، ويطلبون منه ما يسليهم ويفرج عنهم الهموم والأحزان، ويشغلهم عن التفكير والتعقيد والانزواء، فيرغبون إليه

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٨ .

في جلب ما يرفهون به عن أنفسهم بزعمهم، ويجلب لهم الفرح والانبساط، ويضربون له الأمثال بفلان وآل فلان، فينخدع بتعليلاتهم، ويحزنه بكاؤهم وشكاياتهم، فيلبي طلباتهم، ويبذل لهم ماله رخيصاً، فيجلب لهم ما يفسد أخلاقهم، وما يصدهم به عن سواء السبيل، من آلات اللهو واللعب وأجهزة الأغاني وأشرطة الفيديو والكاسيت، ومن الصحف والمجلات الفاسدة . ولا تسأل عما في طياتها من خلاعة ومجون ودعارة وفساد، وما تزرعه في نفوس الأولاد والأهل ذكوراً وإناثاً من ميل إلى الدعة والخمول، والانقطاع عن الأعمال، ومن اندفاع إلى اقتراف الفواحش، وارتكاب المحرمات التي تمثلها لهم تلك الأفلام والأشرطة والصور الفاتنة، حيث يشاهدون فيها الصورة الفاتنة، والمرأة المتبرجة شبه العارية، وصور الشباب أمام النساء، وما بها من حلق اللحى، وشرب الدخان . ولا تسأل عن تأثير هذه المرئيات والمسموعات في قلوب الشباب، على غفلة من الأب أو الولي، زاعما أن هذا من باب التسلية والترفيه، وتنشيط النفوس، وإزالة السآمة والملل، ونحو ذلك من الأعذار الباردة، ولم يشعر أن الذين نشروا هذه الملاهي، وصوروا هذه الأفلام في هذه الآلات والأجهزة، لهم أهداف سيئة زائدة على هدف الاستغلال، واكتساح الأموال، فإنهم قد عرفوا أن المسلمين من العرب وغيرهم ذكوراً وإناثاً عندهم من الفهم والإدراك، وقوة الذاكرة ما يمكنهم من معرفة الصناعات، والقدرة على الاختراع، والإنتاج الفكري والعملي، بحيث يستغني المسلمون عما يستوردونه من إنتاج أولئك الكفرة من الصناعات والأجهزة

والأدوات . . . إلخ، فتكسد سلعهم، أو يقل من يحتاج إليها، مما يضعف اقتصادهم، ويقلل من الاحتياج إلى إنتاجهم، فلعل هذا من أشهر مقاصدهم، فانشغل به شباب المسلمين والعرب، وصيروه شغلهم الشاغل، فضاعت أعمارهم فيما لا أهمية له، أو فيما فيه هلاكهم المعنوي وهم لا يشعرون .

كما أن من أسباب الانحراف كثرة المفسدين ودعاة الضلال الذين وقعوا في شباك الردى، وتمكن منهم الفساد، فأحبوا أن يغروا جلساءهم وزملاءهم، ويوقعوهم فيما وقعوا فيه ولم يستطيعوا التخلص منه، وهدفهم أن يكثر أشباههم، ويتمكنوا من الظهور، ويقل الإنكار عليهم، ويحتجون على من أنكر عليهم بفعل الآخرين، فكثيراً ما ننصح بعض الشباب عن شرب الدخان، وحلق اللحية، وسماع الغناء، فيقول : الناس مثلي كثير؛ أما رأيت غيري، هذا شيء موجود في العالم، ألا ينكره غيرك ؟! ونحو ذلك . مع أنهم عند التحقيق يعرفون خطأهم، وفساد ما اقترفوه، ولكن لما تمكن ذلك منهم، وسيطرت تلك العادات عليهم، واستولى عليهم خلطاؤهم وزملاؤهم، وتحكمت فيهم تلك الأفعال السيئة، لم يجدوا بدا من أن يبرروا موقفهم بأن لهم قدوة، وأن الناس سواهم كثير . ونحن ننصح أولياء الأمور عن الإهمال والإضاعة لأولادهم وفلذات أكبادهم، ونقول : إن الواجب على الأب وولي الأمر أن يتفقد جلساء ولده، ويتحقق من صلاحهم واستقامتهم، ومتى كانوا أفاضل وعباداً أتقياء، من خيرة الشباب وأهل الالتزام والعمل الصالح، أوصاه بملازمتهم، وحضه على مجالستهم، وعلى الاقتداء

بهم، ومنافستهم ومسابقتهم إلى الخيرات وإلى حلقات العلم والمذاكرة والقراءة، والحرص على الاستفادة، فإن كان جلساؤه من أهل السفه واللهو، وإضاعة الوقت، وأهل الضحك والمزاح، فإن عليه أن ينصحه بالبعد عنهم، ويحذره من الجلوس معهم، حرصاً على الاستفادة من الزمان، وعلى حفظ الأعمار فيما يعود على الإنسان بالمصلحة في دينه ودنياه، أما إن كانوا من أهل الفساد والخنا، وعمل الفواحش وفعل المنكرات، والانهماك في المحرمات، فإن صحبتهم تردي بمن صحبهم، وقد نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن مجالسة مثل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1] والأمر لرسوله ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته، والخوض في آيات الله تعالى يعم من يستهزىء بها، أو يكذب بها، أو يطعن في صحتها، أو يعيب أهلها، ويدخل في الآيات كلام الله تعالى وسنة النبي ﷺ، وأحكام الشرع، والحلال والحرام، فكل من خاضوا في ذلك بالباطل حرم الجلوس معهم، ولو كانوا من المتسمين بالإسلام، فمن جلس معهم غافلاً عن الحكم ثم تذكر، أو بدأوا بكلام مباح ثم انتقلوا إلى الخوض المنهي عنه، فإن عليه المبادرة بالقيام عنهم إن لم يتأثروا بالنصح، ولم يقبلوا المعروف، وقد نبه الله تعالى المؤمنين على هذا الحكم، وأكده مرة أخرى بقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨ .

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[(١)] وهذا وعيد شديد، وتهديد أكيد، لمن جلس مع الخائضين في آيات الله، والمستهزئين بها، حيث اعتبر من جلس معهم مثلهم، أي لإقراره وسكوته مع تمكنه من الإنكار، أو من مبارحة المكان، والبعد عن أولئك المستهزئين، ولقد مدح الله تعالى عباده المؤمنين به حقا، الذين وعدهم بمضاعفة الأجر بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾[(٣)] ويدخل في اللغو الخوض في آيات الله بالباطل والسخرية بالأحكام، والتكذيب بالآيات، والطعن في القرآن ونحو ذلك، فكله من اللغو المنهي عنه، فمتى اشتملت المجالس على مثل ذلك، فإن العاقل الذي يريد نجاة نفسه يتركها، ويربأ بنفسه عن مجالسة أهلها، حتى لا يعلق به شيء من وضرهم ودنسهم، فيصعب التخلص منه، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمجالسة أهل الصلاح والإصلاح، والتمسك بالدين الصحيح، والمؤمنين بالله ورسوله ﷺ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[(٤)] وهؤلاء هم الذين أسلموا قديماً، وفارقوا الكفار، وقاطعوهم، فأمر الله نبيه ﷺ بأن يصبر نفسه معهم، ولا ينظر إلى غيرهم نظرة إكبار

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠ .

(٢) سورة القصص، الآية ٥٥ .

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧٢ .

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٨ .

وإجلال، وقد روي أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين وفقراءهم، من المماليك والموالي والحلفاء الذين أسلموا معه، وذكروا أنهم يأنفون عن مجالستهم، فهمَّ النبي ﷺ بطردهم طمعاً في إسلام أولئك الأكابر من المشركين ليسلم غيرهم، ولكن الله تعالى نهاه عن طرد أولئك المؤمنين بقوله : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾[١] وفي هذا ترغيب في مجالسة الصالحين، والقرب منهم، والاستفادة من علومهم وأعمالهم، وفي ضمن ذلك التحذير من مجالسة الأشرار والمفسدين، وأهل الغي والضلال، ولقد وردت السنة النبوية في التحذير من جلساء السوء، والترغيب في صحبة الأخيار والصالحين، والقرب منهم، كما في قول النبي ﷺ : « **مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة** » متفق عليه عن أبي موسى[٢] . وروى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **ومثل جليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه** »[٣] قال

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٢ . والقصة رواها مسلم وأحمد وابن جرير . وذكرها ابن كثير عند هذه الآية، وآية الكهف .

(٢) هو في صحيح البخاري برقم ٢١٠١، ٥٥٣٤ ومسلم برقم ٢٦٢٨ ورواه بقية الجماعة .

(٣) هو في سنن أبي داود برقم ٤٨٢٩ وإسناده صحيح .

النووي في شرح مسلم : « وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجوره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة »[١] اهـ. والتمثيل واقعي فالجليس الصالح إما أن يفيدك بفوائد علمية، أو يدلك على خير، وإما أن يحذرك من الشرور، أو على الأقل يكون قدوة حسنة في قوله وفعله . أما الجليس السوء فهو إما أن يغويك ويوقعك في الردى، وإما أن يكسلك عن الطاعات، وإما أن يكون قدوة سيئة في أفعاله وكلماته . وقد روى أبو سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي** »[٢] قال في تحفة الأحوذي : « المراد منه النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين؛ لأن مصاحبتهم مضرة في الدين . « **ولا يأكل طعامك إلا تقي** » أي : متورع يصرف قوة الطعام إلى عبادة الله »[٣] اهـ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل** »[٤] والخليل هو الصديق المصاحب، يعني أن الغالب على الإنسان الاقتداء بأصدقائه وجلسائه، فهو يقتدي

---

(١) انظر شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٨ .

(٢) رواه أبو داود في الأدب برقم ٤٨٣٢، والترمذي برقم ٢٣٩٧ وإسناده حسن . ورواه أحمد ٣/ ٣٨، والحاكم ٤/ ١٢٨ وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) انظر تحفة الأحوذي على الترمذي ٦/ ٧٦ للمباركفوري .

(٤) رواه أبو داود برقم ٤٨٣٣، والترمذي برقم ٢٣٧٩، والحاكم ٤/ ١٧١ وإسناده حسن، وصححه الحاكم والذهبي .

بهم ويحتذي حذوهم، فإن كانوا صالحين سعد بهم في الدنيا والآخرة، وجمعه الله بهم في دار كرامته، وإن كانوا أشقياء أثروا فيه، وأردوه وأوقعوه في الشقاء، فيندم في الآخرة، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1] هكذا حكى الله عن هذا الظالم أسفه على خلة فلان الذي أضله عن الذكر، وصده عنه، وزين له الكفر والفسوق والمعاصي، وقد قال تعالى عنهم وهم في العذاب : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[2] أي لا يخفف عنهم اجتماعهم في العذاب، بل تنقلب تلك الصداقة والمحبة عداوة وبغضاً، كما قال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] والأخلاء هم الأصدقاء في الدنيا . وقال ابن عبدالقوي[4] :

وصاحب إذا صاحبت كل موفق
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٢٧، ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٣٨، ٣٩ .

(٣) سورة الزخرف، الآية ٦٧ .

(٤) انظر هذه الأشعار ونحوها في (الآداب الشرعية) لابن مفلح ٣/ ٥٦١ وقد أطال في هذا الموضوع، فراجعه إن شئت، فقد أجاد وأفاد رحمه الله تعالى .

وهذا أمر مشاهد، فيعرف كل إنسان بجلسائه، ومما يروى عن علي :

فــــلا تصحـــــب أخــــا الجهـــــل
وإيـــــــــــاك وإيـــــــــــاه
فكـــــم مـــــن جــــاهـــــل أردى
حليمـــــــا حيـــــــن آخـــــاه
يقـــــاس المـــــرء بـــــالمـــــرء
إذا مـــــا المـــــرء مـــــاشـــــاه
وللشـــــــيء علـــــــى الشـــــــيء
مقـــــاييـــــــس وأشبـــــــاه

وفي القصيدة المعروفة بالزينبية قوله :

واحـــذر مصـــاحبـــة اللئيـــم فـــإنـــه
يُعـدي كمـا يُعـدي الصحيـحَ الأجـربُ

وكلام العلماء في اختيار الصحبة كثير، وفيما ذكرنا كفاية .

أهمية الوقت والحرص على استغلاله فيما يفيد :

لما كان كثير من الآباء يشغل أولاده بما يذهب عليهم الزمان؛ لطول الفراغ، والاحتياج إلى الانشغال فيه بما يخففه في زعمه ـ أحببنا أن نشير هنا إلى أهمية الوقت، وأفضل ما ينشغل المرء فيه . فإن الوقت الذي هو الليل والنهار هو كرأس مال الإنسان في التجارة، يحافظ عليه العاقل، ويتحفظ في تصرفه أن يذهب إن أساء العمل، أو

ينقص فيخسر ويندم . فهكذا عمره في هذه الحياة هو الذي يربح إذا استغله في الخير والعلم والعمل الصالح، ويخسر في ضد ذلك، فيجب على العاقل أن يهتم بشغل فراغه فيما يعود عليه بالفائدة العائدة عليه بالخير في دنياه وأخراه، متذكراً أنه مسئول ومحاسب عن زمانه، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم قال : « **لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع ـ أو عن خمس ـ عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به** »[(١)] فقد ذكر من هذه الخصال العمر كله، وخص الشباب مع أنه من جملة العمر، وذلك أن عادة الشباب ميلهم إلى اللهو واللعب والبطالة وإضاعة الوقت، ومن لم يكن منهم كذلك فهو محل غرابة وعجب، حيث مال عن ما يقتضيه الصبا والجهل، ولهذا ورد في الحديث عن عقبة بن عامر رفعه : « **عجب ربك من الشاب ليست له صبوة** »[(٢)] فمتى ترك الشاب وهواه وما يتمناه فإن نفسه تميل عادة إلى اللهو واللعب والمرح والبطالة، فمتى مكنه وليه من مراده فإنه ينهمك في ذلك، ويغفل عن مصالحه العاجلة والآجلة، وينغمس في دحض الباطل والفساد حتى يتمكن ذلك من نفسه، ولا يشعر بالخسران المبين حتى يعقل ويتفكر ويحتاج إلى نفسه، فحينئذ يبلغ منه الأسف

---

(١) رواه الترمذي في أول أبواب القيامة عن أبي برزة الأسلمي برقم ٢٤١٩، وعن ابن مسعود برقم ٢٤١٨ وصحح حديث أبي برزة . وحديث ابن مسعود حسن، وشاهده ما قبله .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٥١، وابن عدي في الكامل ٤/ ٤٦٥ وفيه ضعف .

والندم مبلغه، وقد فات الأوان، ولا شك أن العاقل يجب عليه أن يستحضر نهايته، ويفكر في مستقبله، ويتذكر عاقبة أمره، فيستغل زمانه في كل شيء يعود عليه بالمصلحة في دينه ودنياه، ولا يفرط في لحظة من لحظات عمره بإضاعتها فيما لا فائدة فيه، متذكراً قول الله تعالى مخاطباً لأهل النار: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾[1] فقد ذكرهم ربهم تعالى بأنه عمَّرهم أي: مَدَّ لهم في الأعمار، بحيث يتمكنون من التذكر والتفكر في عاقبة أمرهم ونهايتهم، فيعملون ما فيه نجاتهم من العذاب والنكال، ويشغلون أوقاتهم بما يعود عليهم بالفائدة والخير في دنياهم وأخراهم. ولا شك أن كل يوم يمر بالإنسان فإنه يقربه إلى الآخرة، ويدنيه من أجله، وأن كل ليل أو نهار يطوى على ما فيه من خير أو شر: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2] ولقد أمرالله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعمل في وقت فراغه بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾[3] أي: فاعمل في ساعة تتفرغ فيها ما تستفيد منه لآخرتك، وبهذا يعرف أن ليس هناك وقت يسمى فراغ، بل كل ساعة أو جزء منها لا يكون عند الإنسان فيه عمل فسوف يجد ما يعمله فيه، ولو بالذكر والتلاوة والعلم والعمل. فالعاقل يبخل بعمره أن يضيع منه شيء سبهللاً، دون أن يستفيد من كل ساعة تمر به، حتى لا يخسر جزءاً من حياته، مستحضرا قول

(١) سورة فاطر، الآية ٣٧.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان ٧، ٨.

(٣) سورة الشرح، الآية ٧.

الشاعر[١]:

أليس من الخسران أن لياليا
تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وبهذا يعرف خسران الكثير من أكابر وأصاغر يظهرون الملل من طول الوقت، ويقبلون على اللعب بما يسمى البلوت، ونحوه من الملاهي، أو على ما يعرضونه من أفلام خليعة تحوي صوراً ماجنة، وقصصا خيالية، تشغل الأفكار، وتضيع الأعمار، وكان الأولى أن يضنوا بتلك الساعات الثمينة، ويشغلوها في تلاوة القرآن، أو مذاكرة في حديث أو فقه، أو أدب أو تاريخ فيه عبرة، أو تعلم وتعليم، أو أذكار وعبادات، ونصائح وإرشادات، أو عرض لمواضيع تهم المجتمع، وسعي في نفع المسلمين، فإن الكثير من أولئك الذين يظهرون الملل والسآمة من طول الوقت وكثرة الفراغ، ويعملون أعمالا وألعابا يستفرغون بها زمانهم، لو تعلموا فيه أحكام دينهم، أو تدبروا وقرأوا كتاب ربهم، أو تفقهوا في دينهم، لاستفادوا من فراغهم فائدة كبرى، فإن الغالب عليهم الجهل المركب، فلو سألتهم عن معنى آية أو حديث فقهي، أو تفسير غريب، أو محتوى كتاب مشهور لما أجابوا بقليل ولا بكثير، فما أخسر صفقة من أضاع وقته الثمين وعمره الطويل في غير فائدة دينية أو دنيوية، وأخسر منه من شغل عمره المديد في ضد الطاعة، من عكوف على الملاهي، وسماع للأغاني، وإنصات لقصص وأضحوكات، وتماثيل خيالية،

---

(١) ارجع إلى ما ذكره ابن رجب رحمه الله في أول كتابه (لطائف المعارف) حيث توسع في هذا المعنى .

نسجتها أيدي الأعداء الألداء، لهدف إضاعة الأوقات، واستفراغ الأعمار باسم التسلية والترفية عن النفس، ترفيهاً بريئاً كما يعبرون : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[1] .

مسئولية الآباء وأولياء الأمور :

لقد ثبت في الصحيح قول النبي ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته** » الحديث[2] . فرعاية الرجل لأهل بيته هي سياسته لأمرهم، وأيصالهم حقوقهم الواجبة، قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح هذا الحديث[3] : وجاء من حديث أنس « **فأعدوا للمسألة جواباً** » وسنده حسن، ولابن عدي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه، **حفظ ذلك أم ضيعه** »[4] وقد روى الترمذي[5] حديث ابن عمر، وأشار إلى ما في الباب من حديث أبي موسى وأنس، ثم ذكر أسانيدها، ورجح فيها الإرسال . وبالجملة فالحديث صحيح عن ابن عمر وغيره، ومعلوم أن الرعاية تستلزم الأمانة، والاجتهاد في حفظ الرعية، والنظر في المصالح، والإبعاد عن أسباب الضرر والهلاك، فإذا شعر

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٢٧ .

(٢) رواه البخاري في مواضع أولها رقم ٨٩٣ عن ابن عمر، وأخرجه بقية الجماعة .

(٣) انظر الفتح ١٣/ ١١٣ حيث شرح الحديث هناك .

(٤) كما في الكامل ١/ ٣٠٧ .

(٥) كما في تحفة الأحوذي ٥/ ٣٦١ في الجهاد، باب ما جاء في الإمام .

العبد بأنه مسترعى على أهل بيته، فإنه يحرص على من استرعاه الله إياهم، ويبذل جهده في إصلاحهم، وجلب الخير لهم، وحراستهم عن الشرور والأضرار وأسباب الهلاك والتردي، فلا بد أن يعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، كما أن العاقل يعلم أن مصلحته في حماية الرعية التي تحت يده، حيث إن صلاحهم واستقامتهم يجلب له السعادة، والحياة الطيبة، وقرة العين، عندما يرى ثمرة عنايته قد أينعت وأسفرت عن ذرية صالحة، تبر بالوالد، وتحنو على الولد، وتطيع الله تعالى، وتعمل الأسباب في النجاة من عذابه . فإن أصل الرعاية في رعي بهيمة الأنعام أي : إسامتها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(١)، وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾(٢) فرعاة الدواب المأمونون الناصحون يلاحظونها، ويقصدون بها الأماكن المعشبة، ويراقبونها بنظرهم، ويحفظونها عن السباع واللصوص والضياع، فمتى فرط الراعي في الحفظ والانتباه فإنه مسئول عما نَدَّ منها وملزم بالضمان، وقد قال الشاعر(٣) :

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد

وهكذا يكون أولياء الأمور متى فرط أحدهم، وأهمل أولاده، وغفل عن مصلحة رعيته، فإنه يعتبر ملوماً وسوف يحاسب على

---

(١) سورة النحل، الآية ١٠ .

(٢) سورة طه، الآية ٥٤ .

(٣) هو أبو مسلم الخراساني، كما في ترجمته في سير أعلام النبلاء ٦/ ٥٣، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٨ .

تفريطه، ويندم على إهماله، وبطريق الأولى من أفسد رعيته، ورباهم على سماع الفحشاء والمنكر، وجلب لهم الأجهزة التي تفسد أخلاقهم، وتقضي على معنوياتهم، فإنه مسئول عن إفسادهم وسيندم حين لا ينفع الندم .

القدوة الحسنة والقدوة السيئة :

المعتاد والغالب أن الأبناء والذرية يقتدون بالآباء والمربين والمعلمين، كما حكى الله ذلك عن أهل الجاهلية في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[2] وقال تعالى عن قوم إبراهيم : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[3] وقال تعالى عن قوم هود : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾[4] وغير ذلك من الآيات . فالآباء قدوة حسنة أو سيئة لأولادهم، والاقتداء هو التقليد والاتباع، والتمسك بما عليه الأسلاف من عقيدة أو عمل . فالمعتاد أن الأبناء يحسنون الظن بآبائهم، ويتمسكون بما كانوا عليه، ويعتقدونه سفينة النجاة، ففي قصة موت أبي طالب لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « **قل : لا إله إلا الله . كلمة أحاج لك بها عند الله** » قال له الحاضرون من المشركين : أترغب عن

---

(١) سورة الصافات، الآيتان ٦٩، ٧٠ .

(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٣ .

(٣) سورة الشعراء، الآية ٧٤ .

(٤) سورة الأعراف، الآية ٧٠ .

ملة عبدالمطلب ؟ فكان آخر ما قال : هو على ملة عبدالمطلب[١] . وقد قال عن قوم نوح : ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢] وذلك دليل شدة تمسك الخلف بسنة من سبقهم، وتصلبهم في ما تلقوه عنهم، كما قال عن المشركين : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[٣] ثم إن هناك أخص من التقليد في العقائد ألا وهو تأسي الذرية والأطفال بما عليه المربون وأولياء الأمور، واتباعهم في أفعالهم وأقوالهم، دون تفكير في الحسن والقبيح، والضار والنافع، والخير والشر، فمتى كان المربي أو الولي مستقيماً متبعاً للحق، فإن من تحت يده غالباً يقتدون به، فتراهم يحافظون على الصلوات في الجماعة، ويتقربون بالنوافل، ويسابقون إلى المساجد، ويواظبون على الأذكار والأدعية، عقب الصلوات المكتوبة، ويكثرون من ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وتدبره، ويحبون الخير وأهله، مقتدين في ذلك بمن يربيهم ويعلمهم، ويرون أن ذلك هو سبيل النجاة، وإن لم يكن الولي أو المربي يعلمهم ويلقنهم هذه الفضائل والفوائد، فأما إن أضاف إلى أفعاله الحسنة النصح والإرشاد، وتوجيه من تحت يده، وترغيبهم في فعل الخيرات، وحثهم على الإكثار من القربات، فحدث ولا حرج عن تأثرهم وتقبلهم وتلقيهم لنصائحه وإرشاداته، واطمئنانهم إلى صحة ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز برقم ١٣٦٠ وفي تفسير التوبة، ورواه مسلم في الإيمان برقم ٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٢٤ .

(٣) سورة سبأ، الآية ٤٣ .

يهديهم إلى فعله، وتطبيقهم لكل صغيرة وكبيرة يدعوهم إليها غالباً .
وبضد ذلك نرى أن الآباء وأولياء الأمور والمربين والمعلمين متى كانوا منحرفين زائغين، ظهر الفساد غالباً فيمن تحت أيديهم من الأطفال والذراري، فينشأون على استعمال السباب والشتم واللعن والقذف والعيب والثلب وسيىء المقال أو على الوقاحة والرذالة والرعونة والجفاء وخشونة الطباع، أو على الانحراف في الأخلاق والطبائع، أو على الحسد والظلم والكذب والخيانة والسرقة والاختلاس والفجور وقول الزور، أو على المعاصي الظاهرة ولو كانت منكرة في العقل والفطرة، فتراهم يقلدون أكابرهم ومشايخهم في شرب الدخان، وحلق اللحى، وتعاطي المسكرات والمخدرات، والعكوف على سماع الأغاني والملاهي، والنظر في الصور الفاتنة، والصحف الماجنة، والأفلام الهابطة، ونحو ذلك . ولا شك أن إظهار أمثال هذه المعاصي أمام النشء الصغير غير المميز، مما يدفعه إلى التلوث بها، أو ببعضها، سواء تهاون والده به بادىء ذي بدء أو حذر منها، فإذا أعلن فعلها أمام الأطفال والجهال، حتى نشبوا في تلك الحبائل، ثم حاول تخليصهم وإنقاذهم منها تعب في ذلك ولم يستطع، فيندم حين لا ينفع الندم . فلا تسأل عما يحدث من جراء التخلق بمثل هذه الأخلاق الرذيلة، حيث يتحلى الولد بالعقوق والعصيان، والمخالفة الظاهرة لولي أمره، ويصبح كلاًّ على أبويه، يذيقهما مرارة الحياة، ويجرعهما غصص الأذى، حيث لم يترب على معرفة حق الله تعالى، وما أمر به في حق الأبوين وإنما يسعى في نيل شهوته البهيمية، واتباع غريزته الدنية، ونيل ما يهواه، دون مبالاة

بحل أو حرمة أو حق لله أو للوالدين، حيث لا يعرف من العلم والدين ما يردعه أو يمنعه عن العبث بحق ربه وأهله، كما يعبث الطفل بلعبته، ولقد كثر هذا الضرب في شباب المسلمين، فتراهم يتسكعون في الأسواق والطرق، يعاكسون، ويمارسون المنكر، وتجدهم طوال الليل على الأرصفة وأطراف الطرق المتطرفة، وفي الصحاري وخارج المدن، يلعبون ويمرحون، ونرى أحدهم في جلسائه وقد أشعل سيجارته، وتفيهق في مشيته، وتحلى كما تتحلى الإناث بالتختم بالذهب أو الضيق من اللباس، مما يسبب التأنث والانحراف عن شيم الرجال وشهامتهم، فنهاية أحد أولئك الكسل والبطالة، فتراه عاطلاً خاملاً، فلا نجاح في الدراسة، ولا لزوم لعمل مفيد، ولا حرفة ولا صناعة، حتى إن الكثير من آبائهم يتمنون لهم الموت سريعاً، وكم حاول بعض الأولياء القضاء على هؤلاء ـ ولو كانوا أبناءهم ـ وإعدامهم من الوجود؛ لما يلاقونه من الأذى وسوء المقال، وتكبد الخسارة، وإنفاق الأموال الطائلة عليهم، وهذا هو نتيجة الإهمال في زمن الإمهال، أو هو أثر التربية السيئة، والتنشئة على اللهو والباطل، حتى تمكن فيهم الفساد، فحاول الولي إقامتهم ولات حين مناص .

حكم تربية الكفار لأولاد المسلمين :

لقد قرأت سابقاً ما نشر في جريدة الرياض عدد (٥٢٧٧) وتاريخ ٢/ ٢/ ١٤٠٣ هـ تحت عنوان (هل تصح كفالة المسيحي للمسلم) بقلم عبدالله السباك، الذي ذكر أنه اتفق صدفة بخواجة استرالي، وعلم بواسطته أن هناك جمعيات في بلاد النصارى،

كبريطانيا واستراليا وهولندا وكندا والولايات المتحدة، وأن تلك الجمعيات تعمل ما يكون صرفاً لأولاد المسلمين عن دين الإسلام، وذلك بكفالة الأطفال الذين فقدوا آباءهم ومن يعولهم، وأنها جعلت لها مراكز في البلدان النامية . . . إلخ . وأنا أجيب على عنوان المقالة الذي جاء بالاستفهام عن حكم كفالة المسيحي للمسلم، فأقول : لا يجوز شرعاً تمكين الكفار من الولاية على المسلمين، فإن ديننا الحنيف قد جاء بالتفريق بين الأقارب لأجل الإسلام، نهى عن موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان من الآباء أو الأبناء أو العشيرة فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ ﴾[3] وأمر الله تعالى بالهجرة من بلاد الكفر، ومفارقة الأهل والقبيلة، رغم ما ركب في الفطر من حب الأوطان والتعصب للقبائل؛ فتجب الهجرة والفرار من البلاد التي يعلن فيها الكفر، ويستذل فيها المسلمون، ويلقون الأذى، ويسمعون السخرية والاستهزاء بدينهم وبحرمات الإسلام؛ فيجب عليهم الخروج منها حفاظاً على الدين، وحرصاً على التمسك بالعقيدة، وإعلان العمل بشعائر الإسلام، وإنما عذر الله من الهجرة المستضعفين بقوله

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٣ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٤ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٢٨ .

تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾[1] وذلك أن بقاء المسلم بين ظهراني قوم كفار يكون سبباً في تعذيبه وأذاه، وإلحاق الضرر به، أو سبباً في افتتانه ورجوعه عن دينه، وإذا كان هذا يتصور في الرجل الكبير العاقل، فكيف بالطفل الصغير الذي لا يميز بين الأديان، فيجب إبعاد أولاد المسلمين عن ولاية الكفار والمشركين وأهل البدع والمعاصي؛ وذلك لأن كل فرد غالباً يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، ويألف العادات والأعمال والأخلاق المنتشرة الشائعة في الوطن الذي يعيش فيه، وبين المواطنين الذين ينشأ بين ظهرانيهم، وتظهر وتنطبع آثارها في ديانته ومعتقده ومعاملاته، فإن عاش الطفل وتربى في بلاد تحكم بالشرع الشريف، وتطبقه في العادات والقربات، فتؤدي الواجبات الدينية، وتتجنب المحرمات، وتتنزه عن الجرائم ومساوىء الأخلاق، فإن هذه الأعمال ـ ولا بد ـ سوف تتحكم في ميوله، ويهواها بقلبه، ويألفها وينصبغ قلبه بمحبتها، ويبغض أضدادها وينفر منها، ويكره أهلها ويمقتهم، أما إن تربى في مجتمع يظهر الفساد، ويعتدي على العباد، ويبطش بغير حق، ويخالف مقتضى العقل والنقل، ويستحسن خلاف الشرع، وينتهك الحرمات، ويخل بالواجبات، ويدين بالبدع، ويستحسنها ويعمل بموجبها، فإن ذلك الناشىء عادة يكون منهم، ويعمل كعملهم، ويعتقد ما يعتقدونه من كفر أو إلحاد أو نفاق، أو بدع مضللة أو مفسقة، ويجزم بأن ذلك هو عين الصواب، وأن ما عداه خطأ وضلال . فتأثير البيئة والمجتمعات في تغيير الفطر

(١) سورة النساء، الآية ٩٨ .

وصرف القلوب أمر محسوس جلي لا شك فيه، وقد دل على ذلك الحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء** » ثم يقول أبو هريرة: « إقرأوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[1] فقد أخبر أن الطفل يولد على الفطرة، وهي الحنيفية السمحة، فلو ترك وفطرته لعرف أن له رباً خالقاً مالكاً متصرفاً، وعرف أن الذي خلقه ورزقه وسخر له الأبوين، وكمل خلقه، أن له عليه حقوقاً وعبادات، كما على العبد لمالكه. ثم أخبر أنه ينصرف وينحرف عن تلك الفطرة بما ألفى عليه أبويه، حيث نشأ معهما وتلقى عنهما ما يدينان به من يهودية أو نصرانية أو مجوسية، أو وثنية أو بوذية أو هندوسية، أو غيرها من الملل الكفرية، وهكذا إن كان أبواه يعتقدان عقيدة منحرفة، كبدعة الرافضة والفلاسفة، والدروز والباطنية، والبعثية والنصيرية، والمعطلة والمشبهة، والبهائية والقاديانية، ونحوها، فإن الأبوين يلقنان أولادهما ما يدينان به؛ فيتربى الطفل على تلك العقائد الضالة جازماً بصحتها، عازفاً عما سواها، لا يحدث نفسه بالنظر في غيرها، فيعزب عن باله ما تتكون منه، وما تحويه من الكفر والضلال، والانحراف عن الهدي المستقيم، ولا يتصور ما يُرد عليها من الأدلة النيرة التي توضح فسادها، وقد قال تعالى في اليهود: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم ١٣٨٥ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، والآية رقم ٣٠ من سورة الروم.

بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾[(١)] مع أن هذا في شأن القبلة، وهي فرد من جزئيات الديانة، فكيف بأصل العقيدة، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[(٢)] . فمتى تربى شخص منذ حداثته على أخلاق أو عقائد، ونشأ عليها وألفها، فإن تحويله عنها من الصعوبة بمكان، مهما بذلت له المحاولات، وأقيمت عليه البراهين، وأوضحت له الحجج التي تنير الحق، وتبين سفاهة من دان بتلك الأديان الباطلة، أو انتحل تلك النحل الزائغة، أو صدق بتلك العقائد المنحرفة : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[(٣)] . فرجوع مثل هذا إلى الصواب مع رسوخ الباطل في ذهنه، شبه المستحيل إلا ما شاء الله . ولما كانت التربية في سن الطفولية لها هذا التأثير في تقويم الإنسان أو انحرافه، رأينا النصارى والرافضة ونحوهم من أعداء الإسلام والسنة يبذلون كل وسيلة، ويعملون كل حيلة في الحصول على ولاية وحضانة وتربية أطفال المسلمين، سيما الذين يفقدون آباءهم بموت أو قتل أو غيبة أو سجن مؤبد أو تشريد، كما هو حاصل في كثير من البلاد تاركين خلفهم أعداداً كثيرة من الأطفال والذراري، ممن لا يزالون في سن الطفولية، فبعد أن يغيب أو يموت الآباء، ويبقى أولئك الأطفال منقطعين، لا يجدون من يعولهم أو يرعى شئونهم من قريب أو نسيب، أو ذي رحم، أو مسلم يشفق على

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٥ .
(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٠ .
(٣) سورة الحج، الآية ٤٦ .

ذرية إخوته المسلمين، فعند ذلك ينتهز الفرصة أعداء الدين، من نصارى وشيوعيين، ويهود وفلاسفة، ورافضة وقبوريين، والضُّلاَّل من المتصوفة وغيرهم، فيتتبعون أولئك الأطفال في أكواخهم ومساكنهم المتواضعة، ويغرونهم بالمال، وبالمنازل الرفيعة، وينقلونهم من فقر وفاقة وشدة مؤنة إلى رغد عيش ورفاهية وبيوت مكيفة مكملة بكل ما يتمنون، فيربونهم كما أرادوا، ويعلمونهم الأديان التي ينتحلونها، ويتولون تنشئتهم كما يريدون، ويغسلون أدمغتهم من روح الإسلام، ومن دينهم الذي ولدوا عليه، والذي صبر عليه آباؤهم وأجدادهم، وتمسكوا به وعضوا عليه بالنواجذ حتى فارقوا الدنيا . وبلا شك أن هؤلاء الأطفال متى نشأوا وتربوا على أيدي أولئك الكفار والمبتدعين، بعيدين عن أهليهم وأوطانهم، ومقر أديانهم وأديان أسلافهم، فإنهم يدينون بديانة أولئك المربين والمدربين، لا يعرفون غيرها، ولا يخطر ببالهم أن هناك ديناً أصلح مما تعلموه؛ فيصبح أولاد المسلمين كفاراً ومشركين، أو نصارى ويهوداً، أو روافض ومبتدعين، أو نحو ذلك من الديانات الباطلة، ويصبحون وبالاً على الدين الصحيح، وأعداء للإسلام الذي هو دين آبائهم وأسلافهم، والواقع يشهد بذلك . وقد ذكر بعض الدعاة الذين سافروا إلى البلاد النازحة أن أعداداً كبيرة من مسلمي الهند ومسلمي أفغانستان نزحوا إلى قارة أستراليا التي يحكمها النصارى، فنشأ أولادهم على دين النصارى، وتعلموا لغتهم، ودانوا بما هم عليه، حيث لم يكن هناك من يعلمهم دين الإسلام، فتولى النصارى تربيتهم ولقنوهم دين النصرانية .

فتح المدارس والمستشفيات في بلاد الإسلام :

لقد فكر أعداء الله تعالى فيما يتوصلون به إلى إضلال المسلمين، ويكسبون به قلوبهم وأبدانهم، ويغيرون به أديانهم، فبذلوا كل جهد في التهويد والتنصير، والإخراج من المعتقد السليم، والدين القويم، بعد أن رأوا قوة المسلمين وانتصارهم، وفتحهم البلاد بعد فتحهم القلوب، ورأوا أن الدين الصحيح والعقيدة السلفية لا يقوم أمامها قائم، ولا يستطيع مقاومتها ذو قوة وبأس ومنعة، فلم يجدوا سوى الغزو الفكري، والسعي في الصد عن الصراط السوي، فبذلوا كل ما يستطيعونه من قوة، وأعملوا كل حيلة ووسيلة، وكان من بين ما فكروا فيه، ونجحوا في تفكيرهم، هو فتح المدارس التبشيرية كما يعبرون، فأسسوا الكثير من تلك المدارس في بلاد يدين أهلها بالإسلام، سيما بين الدول الفقيرة التي تعوزها النفقة، ويهم أحدهم تحصيل القوت الضروري، فانتهز أولئك المنصرون الفرص في حينها، وعرضوا عليهم أن يبنوا لهم مدارس ومستشفيات، ودور تعليم، وخدعوهم بأن ذلك للرفق بهم والرحمة والإنسانية، وقاسموهم أنهم لهم ناصحون، ليعلموا أولادهم، ويعالجوا مرضاهم، فصدقهم أولئك الأهالي، فبادروا وانتهزوا الفرصة، ولم يهمهم ما بذلوا من الأموال الطائلة في إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات، وما أولوهم من العناية والتربية والتعليم والعلاج، هذه حيلة النصارى، ومثلهم الرافضة الذين يدعون الإسلام وهم بعيدون منه، فقد اشتهر عنهم غزوهم لأغلب البلاد الإسلامية التي يدين أهلها بالسنة؛ ليصرفوهم إلى عقيدة الرفض والتشيع، فيؤسسون

عندهم ما يحتاجونه من المدارس والمرافق، ويبذلون لهم المنح الدراسية، ويحرصون على استقدام أفواج الطلاب من مختلف البلاد الإسلامية التي تدين بعقيدة أهل السنة؛ ليتولوا تعليمهم كما يشاءون فيزينون لهم معتقد التشيع الزائغ، ويوهمونهم صحة ما هم عليه، وهكذا يفعل كل من كان على نحلة أو اعتقاد ـ ولو اتضح خطؤه ـ في الدعوة إلى أديانهم، وعدم المبالاة بما يصرفونه على تأسيس تلك المدارس ودور التعليم، ولا يهمهم ما أنفقوه على التلاميذ، وما أعطوه لهم من قليل المال وكثيره؛ ليكون ذلك حافزاً لأولئك الجهلة على الانضواء تحت رعايتهم، والتهافت إلى مدارسهم ودور تعليمهم، والتلقي عن أساتذتهم؛ لكون التعليم مجاناً، باسم التعليم والتثقيف، وإزالة الجهل، مع ما يبذلون للطلاب ويغرونهم به من المرتبات والجوائز، والأطعمة المجانية، والكسوة وإنفاق كل ما يحتاجونه من الكتب والأقلام والدفاتر، والأدوات المدرسية، فلا جرم تمكنوا من نيل مقاصدهم، فوصلوا إلى تبديع وتنصير الفئات والجماعات من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم، بهذه الحيل الفاتنة، وحيث إن تربية الأطفال ينتج عنها التدين بما يلقيه المربي، واعتقاده أصلاً ومنهجاً، يصعب الانفكاك عنه والتخلي عن العمل به، ولو كان في أصله ديناً باطلاً، أو كفراً أو ضلالاً، فإن هذه الحضانة والتربية بأيدي الكفار والمضلين لا تجوز شرعاً، فلا يجوز أن يمكن الكافر من تولي الطفل المسلم حال طفوليته، ولو كان ذلك الكافر أو المبتدع أباه أو أخاه، أو قريبه أو نسيبه، كما أن القريب المسلم إذا كان فاسقاً أو عاصياً لا يجوز أن يتولى حضانة الصبي

المسلم مهما كانت قرابته؛ لأنه غير موثوق به في أداء الواجب من الحضانة، ولا حظ للطفل في حضانته؛ لأنه ينشأ على طريقته، ويقع فيما وقع فيه . وهذا أمر محسوس، فإن المطلوب من الحضانة أمر زائد على الغذاء والحفظ البدني، والتطهير والتنظيف الظاهر، ذلك الأمر هو التغذية الروحية، وتنمية الفطرة الدينية، وتطبيقها عملياً، فمتى كان المربي أو المعلم منحرفاً زائغاً في المعتقد، أو متلبساً بذنب مكفر أو مفسق، فإنه يظهر حال تلبسه به أمام أولئك الأطفال، ويوهمهم أن ذلك الذنب حسن أو لا محذور فيه، فلذلك يشاهد أن المبتدعة كالمعتزلة والرافضة ونحوهم ينشأ أولادهم على معتقدهم الزائغ، كما أن تارك الصلاة وشارب الخمر والمدخن والزاني وآكل الربا والسارق والقاذف واللعان والطعان ونحوهم يألف أولادهم تلك المعاصي، ويفعلونها محاكاة لآبائهم، ويصعب تحويلهم عنها، حيث نشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم، فلا يعرفون سواها، ولم يجدوا موجها صالحاً في صغرهم ينبههم على خطرها وضررها . فإذا كان هذا في العصاة والمذنبين فكيف بالكفار والمشركين من النصارى والوثنيين والملحدين . وإليك بعض ما قال علماء الإسلام في حضانة الكافر للمسلم وحكمها . قال أبو محمد ابن قدامة في المغني ٧/ ٦١٢ : « ولا تثبت ـ يعني الحضانة ـ لكافر على مسلم، وبهذا قال مالك والشافعي وسَوّار والعنبري . وقال ابن القاسم وأبو ثور وأصحاب الرأي : تثبت له؛ لما روي عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه عن جده رافع بن سنان أنه أسلم وأبت امرأته أن تسلم، فأتت النبي ﷺ فقالت : ابنتي وهي فطيم أو شبهه . وقال رافع : ابنتي .

فقال النبي ﷺ : « **أقعد ناحية** » وقال لها : « **اقعدي ناحية** »، وقال : « **ادعواها** » فمالت الصبية إلى أمها، فقال النبي ﷺ : « **اللهم اهدها** » فمالت إلى أبيها فأخذها . رواه أبو داود(١) . ولنا : أنها ولاية، فلا تثبت لكافر على مسلم، كولاية النكاح والمال، ولأنها إذا لم تثبت للفاسق فالكافر أولى، فإن ضرره أكثر، فإنه يفتنه عن دينه ويخرجه عن الإسلام بتعليمه الكفر وتزيينه له، وتربيته عليه، وهذا أعظم الضرر . والحضانة إنما تثبت لحظ الولد، فلا تشرع على وجه يكون فيه هلاكه وهلاك دينه . فأما الحديث فقد روي على غير هذا الوجه، ولا يثبته أهل النقل، وفي إسناده مقال . قال ابن المنذر(٢) : ويحتمل أن النبي ﷺ علم أنها تختار أباها بدعوته، فكان ذلك خاصاً في حقه » اهـ.

وهذا الخلاف المذكور وقع فيما إذا كان الكافر قريباً للطفل، كالأم التي هي أولى بالحضانة، وأعرف بشئون التنظيف والعناية بالطفل، وأصبر على حمله وفصاله، وأعرف بتغذيته ورعاية مصالحه . وقال ابن حزم في المحلى ١١/ ٧٤٢ : « الأم أحق

---

(١) هو في سنن أبي داود في كتاب الطلاق برقم ٢٢٤٤، ورواه أيضاً النسائي في سننه (المجتبى) ٦/ ١٨٥، وابن ماجه في الأحكام برقم ٢٣٥٢ من طرق عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه به . وعند ابن ماجه : عن عبدالحميد بن سلمة . وجعل النسائي المولود ذكراً، وكذا عند ابن ماجه . وذكر المزي أن رافع بن سنان هو جد جد عبدالحميد؛ فيكون الحديث مرسلاً أو منقطعاً . وذكره البوصيري في الزوائد وقال : عبدالحميد وأبوه وجده مجهولون .

(٢) وفي طبعة التركي : قاله ابن المنذر . وقد يرجحه النقل عن ابن القيم كما يأتي .

بحضانة الولد الصغير والابنة الصغيرة حتى يبلغا المحيض أو الاحتلام أو الإنبات مع التمييز وصحة الجسم، فإن لم تكن الأم مأمونة في دينها ودنياها نظر لهما بالأحوط في دينهما ثم دنياهما، فحيثما كانت الحياطة لهما في كلا الوجهين وجبت هنالك، عند الأب أو الأخ أو الأخت أو العمة أو الخالة، أو العم أو الخال . وذو الرحم أولى من غيرهم بكل حال، والدين مغلب على الدنيا. . . والأم الكافرة أحق بالصغيرين مدة الرضاع، فإذا بلغا من السن والاستغناء ومبلغ الفهم فلا حضانة لكافرة ولا فاسقة. . . وأما تقديم الدين فلقول الله عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾[3] فمن ترك الصغير والصغيرة حيث يدربان على سماع الكفر، ويتمرنان على جحد نبوة رسول الله ﷺ، وعلى ترك الصلاة، والأكل في رمضان، وشرب الخمر، والأنس إليها حتى يسهل عليهما شرائع الكفر، أو على صحبة من لا خير فيه، والانهماك على البلاء فقد عاون على الإثم والعدوان، ولم يعاون على البر والتقوى، ولم يقم بالقسط، ولا ترك ظاهر الإثم وباطنه، وهذا حرام ومعصية، ومن أزالهما عن المكان الذي فيه ما ذكرنا إلى حيث يدربان على الصلاة والصوم، وتعلم القرآن، وشرائع الإسلام، والمعرفة بنبوة رسول الله ﷺ، والتنفير عن

(١) سورة المائدة، الآية ٢ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٣٥ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٢٠ .

الخمر والفواحش، فقد عاون على البر والتقوى، ولم يعاون على الإثم والعدوان، وترك ظاهر الإثم وباطنه، وأدى الفرض في ذلك . وأما مدة الرضاع فلا نبالي عن ذلك؛ لقول الله تعالى : ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[1]، ولأن الصغيرين في هذه السن ومن زاد عليها بعام أو عامين لا فهم لهما، ولا معرفة بما يشاهدان، فلا ضرر عليهما في ذلك، فإن كانت الأم مأمونة في دينها والأب كذلك فهي أحق من الأب؛ لقول رسول الله ﷺ الذي ذكرنا، ثم الجدة كالأم، فإن لم تكن مأمونة لا الأم ولا الجدة في دينها، أو تزوجت غير مأمون في دينه، وكان الأب مأموناً فالأب أولى ثم الجد، فإن لم يكن أحد ممن ذكرنا مأموناً في دينه، وكان للصغير أو الصغيرة أخ مأمون في دينه، أو أخت مأمونة في دينها فالمأمون أولى، وهكذا في الأقارب بعد الإخوة، فإن كان أحدهما أحوط في دينه، والآخر أحوط في دنياه، فالحضانة لذي الدين ـ إلى أن قال ـ وأيضاً فنحن لا ننكر تخييره إذا كان أحد الأبوين أرفق به، ولا شك في أن رسول الله ﷺ لا يخير بين خير وشر، ولا شك في أنه عليه الصلاة والسلام لا يخير إلا بين خيرين، وكذلك نحن على يقين من أنه عليه الصلاة والسلام لا يترك أحداً على اختياره ما هو فساد له في دينه أو في حالته، فقد يسوء اختيار الصغير لنفسه، ويميل إلى الراحة والإهمال. . . » إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

فمتى سقطت حضانة القريب الذي يهمل الأولاد، أو يربيهم على الكفر والفسوق والمعاصي، أو في مجتمع وبيئة بعيدة عن العلم

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣ .

والدين وتفاصيل الشريعة، فبطريق الأولى إذا كان المربي بعيد الصلة والنسب من أولئك الأطفال، ولا قصد له ولا أرب في إصلاح أديانهم، بل جل همه صرفهم عن عقيدتهم، وتلقينهم ملة غير ملة آبائهم وأسلافهم، وهذا بلا شك هدف تلك الدول الكافرة من حرصهم على احتضان ذراري المسلمين الذين فقدوا آباءهم وأهليهم، أو الذين ابتلوا بالفقر والفاقة، واشتدت حاجتهم إلى المادة البدنية والروحية، وقد اتفق جمهور العلماء على أن العاصي والفاسق لا ولاية له على الصبي المحكوم بإسلامه، وأحب أن أنقل هنا كلام بعض العلماء؛ لتوضيح ذلك، وذكر المفاسد التي تنشأ عن تولي الفسقة وتربيتهم، فمن ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال في مجموع الفتاوى ٣٤/ ١٣١ : « فلو قدرنا أن الأب ديوث لا يصونه والأم تصونه لم نلتفت إلى اختيار الصبي، فإنه ضعيف العقل، قد يختار أحدهما؛ لكونه يوافق هواه الفاسد، ويكون الصبي قصده الفجور ومعاشرة الفجار، وترك ما ينفع من العلم والدين والأدب والصناعة، فيختار من أبويه من يحصل له معه ما يهواه، والآخر قد يرده ويصلحه . ومتى كان الأمر كذلك فلا ريب أنه لا يُمكَّن من يفسد معه حاله . والنبي ﷺ قال : « **مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع** »[1] فمتى كان أحد الأبوين يأمره بذلك والآخر لا يأمره، كان عند الذي يأمره بذلك دون الآخر؛ لأن ذلك الآمر له هو المطيع لله ورسوله في

---

(١) رواه أبو داود كما في سننه برقم ٤٩٥ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

تربيته، والآخر عاص لله ورسوله، فلا نقدم من يعصي الله فيه على من يطيع الله فيه، بل يجب إذا كان أحد الأبوين يفعل معه ما أمر الله به ورسوله، ويترك ما حرم الله ورسوله، والآخر لا يفعل معه الواجب، أو يفعل معه الحرام، قدم من يفعل الواجب، ولو اختار الصبي غيره، بل ذلك العاصي لا ولاية له عليه بحال، بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له عليه، بل إما أن ترفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب، وإما أن يضم إليه من يقوم بالواجب معه، فإذا كان مع حصوله عند أحد الأبوين لا تحصل طاعة الله ورسوله في حقه، ومع حصوله عند الآخر تحصل قدم الأول قطعاً » اهـ.

فهذا كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الأبوين، مع ما جبلا عليه من الشفقة والرحمة حيث ذكر أن الولد لا يقر على اختياره إذا مال مع الذي لا يصلحه ولا يربيه التربية الإسلامية، فكيف إذا كان المربي أجنبياً من الطفل، بعيداً عن قصد إصلاحه في دينه وعقيدته، بل لا يألوا جهداً في إبعاده عن دين الإسلام، وتلقينه ملة الكفر التي يدين بها ذلك المربي، ويعتقد النجاة في اعتناقها . وقد صرح ابن القيم رحمه الله تعالى باشتراط اتفاق الدين بين الحاضن والمحضون، فقال رحمه الله في (زاد المعاد) ٤/ ١٣٢ : وقد اشترط في الحاضن ستة شروط (اتفاق الدين) فلا حضانة لكافر على مسلم؛ لوجهين :

أحدهما : أن الحاضن حريص على تربية الطفل على دينه، وأن ينشأ عليه ويتربى عليه، فيصعب بعد كبره وعقله انتقاله عنه، وقد يغيره عن فطرة الله التي فطر عليها عباده، فلا يراجعها أبداً، كما قال

النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** »(١) فلا يؤمن تهويد الحاضن وتنصيره للطفل المسلم . وإن قيل : الحديث إنما جاء في الأبوين خاصة . قيل : الحديث خرج مخرج الغالب، إذ الغالب المعتاد نشوء الطفل بين أبويه، فإن فقد الأبوان أو أحدهما قام ولي الطفل من أقاربه مقامهما .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه قطع الموالاة بين المسلمين والكفار، وجعل المسلمين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض . والحضانة من أقوى أسباب الموالاة التي قطعها الله تعالى بين الفريقين . وقال أهل الرأي وابن القاسم وأبو ثور : تثبت الحضانة لها مع كفرها وإسلام الوالد، واحتجوا بما روى النسائي في سننه، من حديث عبدالحميد بن جعفر عن أبيه عن جده رافع بن سنان أنه أسلم وأبت امرأته أن تسلم، فأتت النبي ﷺ فقالت : ابنتي وهي فطيم أو شبهه، وقال رافع : ابنتي . فقال النبي ﷺ : « **اقعد ناحية** » وقال لها : « **اقعدي ناحية** » وقال لهما : « **ادعواها** » فمالت الصبية إلى أمها، فقال النبي ﷺ : « **اللهم اهدها** » فمالت إلى أبيها فأخذها(٢). قالوا : ولأن الحضانة لأمرين : الرضاع، وخدمة الطفل، وكلاهما يجوز من الكافرة . قال الآخرون : هذا الحديث من رواية عبدالحميد بن جعفر بن عبدالله بن الحكم بن رافع بن سنان الأنصاري الأوسي، وقد ضعفه إمام العلل يحيى بن سعيد القطان،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ١٣٨٥ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد تقدم .

(٢) رواه أبو داود برقم ٢٢٤٤ والنسائي وقد تقدم .

وكان سفيان الثوري يحمل عليه، وضعف ابن المنذر الحديث، وضعفه غيره، وقد اضطرب في القصة، فروى أن المخيَّر كان بنتاً، وروى أنه كان ابناً . وقال الشيخ في (المغني): وأما الحديث فقد روي على غير هذا الوجه، ولا يثبته أهل النقل، وفي إسناده مقال . قاله ابن المنذر . ثم إن الحديث قد يحتج به على صحة مذهب من اشترط الإسلام، فإن الصبية لما مالت إلى أمها دعا النبي ﷺ لها بالهداية فمالت إلى أبيها، وهذا يدل على أن كونها مع الكافر خلاف هُدى الله الذي أراده من عباده، ولو استقر جعلها مع أمها، لكان فيه حجة، بل أبطله الله سبحانه بدعوة رسوله . ومن العجب أنهم يقولون : لا حضانة للفاسق . فأي فسق أكبر من الكفر، وأين الضرر المتوقع من الفاسق بنشوء الطفل على طريقته إلى الضرر المتوقع من الكافر . ا هـ . هذا كلام ابن القيم رحمه الله فارجع إليه في معرفة بقية الشروط، وكل هذا فيما إذا كان الحاضن أحد الأبوين، أو الأقارب الذين تربطهم بالطفل أواصر الأخوة والشفقة والرحمة، لأجل القرابة، وحمية الرحم، وتدفعهم تلك الغريزة إلى النصح لهم، وبذل الخير والدلالة عليه، وأخذ الحيطة والحماية عن أسباب الردى . وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (روضة الطالبين) ٩/ ٩٨ : « فالحضانة للأم إن رغبت فيها، لكن لاستحقاقها شروط :

أحدها : كونها مسلمة إن كان الطفل مسلما بإسلام أبيه، فلا حضانة لكافرة على مسلم، وقال الإصطخري : لها الحضانة . وقيل : الأم الذمية أحق بالحضانة من الأب المسلم إلى أن يبلغ الولد سبع سنين، ثم الأب بعد ذلك . قال الأصحاب : والصحيح الأول،

فعلى هذا حضانته لأقاربه المسلمين على ما يقتضيه الترتيب، فإن لم يوجد أحد منهم فحضانته على المسلمين. . . ولو وصف صبي من أهل الذمة الإسلام نزع من أهل الذمة سواء صححنا إسلامه أم لا، ولا يمكنون من كفالته، والطفل الكافر والمجنون تثبت لقريبه المسلم حضانته وكفالته على الصحيح؛ لأن فيه مصلحة له » اهـ. وقال صاحب (المهذب) في فقه الشافعية كما في الشرح ١٨/ ٣٢٠ : « ولا تثبت ـ الحضانة ـ لكافر على مسلم، وقال أبو سعيد الإِصْطَخْرِيُّ : تثبت للكافر على المسلم؛ لما روى عبدالحميد ابن سلمة عن أبيه أنه قال : أسلم أبي، وأبت أمي أن تسلم، وأنا غلام، فاختصما إلى النبي ﷺ فقال : « **يا غلام اذهب إلى أيهما شئت، إن شئت إلى أبيك، وإن شئت إلى أمك** » فتوجهت إلى أمي، فلما رآني النبي ﷺ سمعته يقول : « **اللهم اهده** » فملت إلى أبي فقعدت في حجره[1]. والمذهب الأول؛ لأن الحضانة جعلت لحظ الولد، ولا حظ للولد المسلم في حضانة الكافر؛ لأنه يفتنه عن دينه، وذلك من أعظم الضرر، والحديث منسوخ، ولأن الأمة أجمعت على أنه لا يسلم الصبي المسلم إلى الكافر » اهـ. ثم قال الشارح المطيعي في تكملة شرح المهذب ١٨/ ٣٢٢ بعد أن تكلم على الحديث : « وفي إسناده اختلاف كثير، وألفاظه مختلفة مضطربة » ونقل عن (التقريب) لابن حجر في ترجمة عبدالحميد بن جعفر قال : « صدوق رمي بالقدر، وربما وهم ».

(١) الصواب عبدالحميد بن جعفر، وقد تقدم الحديث مراراً، وهذا من الاختلاف فيه .

وقال أبو حاتم : لا يحتج به . وكان سفيان يضعفه، ووثقه ابن معين[١] . ثم قال الشارح المطيعي في تكملة المجموع ١٨/ ٣٢٤ : « ولا تثبت الحضانة لفاسق؛ لأنه لا يؤمن أن ينشأ الطفل على منزعه، وإن كان أحد الأبوين مسلماً، فالولد مسلم، ولا تثبت عليه الحضانة للكافر، وقال أبو سعيد الإصطخري : تثبت؛ لحديث عبدالحميد . ونقول : إن هذا الحديث استدل به القائلون بثبوت الحضانة للأم الكافرة، كأبي حنيفة وأصحابه، وابن القاسم المالكي وأبي ثور، وذهب الجمهور إلى أنه لا حضانة للكافرة على ولدها المسلم، وأجابوا عن الحديث بما فيه من المقال والاضطراب، وقال المصنف : إنه منسوخ، ولعله يحتج بأدلة عامة كقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[٢] وبنحو « **الإسلام يعلو ولا يعلى** »[٣] وقد استدل ابن القيم بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[٤] على أن المراعى أولاً في التخيير أو الاستهام بالقرعة ما هو أصلح للصغير، وأن أياً ما كان الأمر من التخيير أو التعيين أو الاقتراع فإن أولئك مقيد بقوله تعالى : ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ وحكى عن شيخه ابن تيمية أنه قال :

---

(١) ذكر هذه الأقوال الذهبي في (ميزان الاعتدال) في ترجمة عبدالحميد بن جعفر .

(٢) سورة النساء، الآية ١٤١ .

(٣) رواه الدارقطني في سننه ٣/ ٢٥٢ عن عائذ بن عمر المزني، وعلقه البخاري كما في الفتح ٣/ ٢٢٠ .

(٤) سورة التحريم، الآية ٦ .

تنازع أبوان صبياً عند الحاكم، فخير الولد بينهما فاختار أباه، فقالت أمه : سله لأي شيء يختاره . فسأله فقال : أمي تبعثني كل يوم للكاتب والفقيه يضرباني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان؛ فقضى به للأم . ورجح هذا ابن تيمية . فإذا كانت روح الشرع تقضي بمراعاة صالح الصغير، فإن مما لا شك فيه أن إلقاءه في أحضان الكفر قضاء على صلاحه دنيا وأخرى، ومن ثم يتعين خطأ أبي سعيد الإصطخري، وأبي حنيفة وأصحابه، وابن القاسم وأبي ثور . وقال العمراني : إن الحضانة لحظ الولد، ولا حظ له في حضانة الكافر؛ لأنه لا يؤمن أن يفتن عن دينه . ثم قال : أما الحديث فغير معروف عند أهل النقل(١) وإن صح فيحتمل أن يكون النبي ﷺ علم أنه يختار أباه، فلهذا خيره، فيكون ذلك خاصاً لذلك الولد دون غيره » اهـ.

ومن هذه النقول يتضح أن الجمهور على منع ولاية الكافر، وحضانته للطفل المسلم، وأن من أجاز ذلك كأصحاب الرأي وهم الحنفية ومن وافقهم فقد خصوه بأحد الأبوين، تمسكاً بحديث عبدالحميد المذكور، وقد عرفت ضعف الحديث وما فيه من الاختلاف، ومع ذلك فلا مانع من حضانة الأم الكافرة في الصغر؛ لمكان الشفقة والرحمة، فإن زمن الرضاعة وبعده بسنة أو سنتين لا تأثير معه لدينها وأعمالها الكفرية، لكن متى بلغ الطفل سناً يميز به، ويعرف ما يتدين به، ويتأثر بالتلقين، ويخاف أن يألف أعمال الكفار ويميل إليها، وجب نزعه من أحضان أقاربه غير المسلمين، وتسليمه إلى من يسعى في إصلاحه، ويربيه التربية الإسلامية، وهذا واجب على المسلمين

---

(١) يعني حديث عبدالحميد بن جعفر المتقدم مراراً .

عموماً في كل دولة وبلد بالنسبة إلى أولاد إخوتهم، من يتيم فقد أباه ومن يحصنه ويتولاه، أو ينفق عليه من قريب أو أخ شفيق، ومن فقير يعجز وليه عن النفقة وتوابعها، فعلى المسلمين المؤمنين أن تحملهم الشفقة الدينية، والأخوة الإسلامية على احتضان أولاد إخوتهم في الدين وعلى توليهم ورعايتهم وإصلاح أحوالهم، وقد ورد الترغيب في كفالة اليتيم، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً[(١)]. قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به؛ ليكون رفيق النبي ﷺ، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك، والكافل هو القائم بأمر اليتيم المربي له. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « **من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر** »[(٢)] يعني مثل الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه، أو مثل حقوق الآدميين التي لا بد فيها من القصاص. وعن مرة الفهري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين** » في الوسطى والتي تلي الإبهام[(٣)]. وذكر الحسن البصري رحمه الله أن يتيماً كان يحضر طعام ابن عمر، فدعا بطعام ذات يوم،

---

(١) رواه البخاري كما في الفتح ١٠/ ٤٣٦ برقم ٦٠٠٥، والترمذي كما في تحفة الأحوذي ٦/ ٤٥، وأبو داود برقم ٤١٥٠، وأورد له الحافظ شواهد كثيرة وأشار الترمذي إلى عدة أحاديث.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة كما في التحفة ٦/ ٤٤ وفي إسناده ضعف.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٣ وغيره.

فطلب يتيمه فلم يجده، فجاء بعدما فرغ . . . فجاءه بسويق وعسل فقال : دونك هذا فوالله ما غبنت . قال الحسن : وابن عمر والله ما غبن[١] . والمعنى أن اليتيم لما فاته الطعام المعتاد عوضه عنه سويقا وعسلاً، وهو من خير الطعام، فأخبره بأنهم ما غبنوه بأكلهم الطعام، فقد حصل على خير منه، وابن عمر ما غبن؛ لحصوله على أجر إطعام اليتامى، وكان ابن عمر رضي الله عنه لا يأكل طعاماً إلا وعلى خوانه يتيم[٢] . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه . أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين** » يشير بأصبعيه[٣] . وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين** » بأصبعيه السبابة والوسطى[٤] . وروى عبدالرحمن بن أبزى قال : قال داود عليه السلام : كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد[٥] . وقد حث الله تعالى على إعطاء اليتامى من الصدقات

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٤ وإسناده صحيح إلى الحسن وهو البصري .

(٢) كما عند البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٦ وله في الصحيح نحوه في كتاب الأطعمة الباب ١٢ .

(٣) رواه ابن ماجه برقم ٣٦٧٩، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٧، وإسناده ضعيف .

(٤) رواه مسلم كما في الزهد من صحيحه برقم ٢٩٨٣ مسنداً، ورواه مالك ٩٤٨/٢ مرسلاً .

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٨ مطولاً .

العامة والخاصة كقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[2] وجعل لهم حقاً في الفيء وخمس الغنيمة بقوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾[3] وقوله : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾[4] والآيات في ذكر اليتامى كثيرة معلومة، ففي هذه النصوص الحث على كفالة اليتامى، والإنفاق عليهم، واحتضانهم، والحرص على إنقاذهم من الفقر والجوع والضرر والهوان، وحمايتهم من ولاية الشيوعيين والمشركين، واليهود والنصارى، والروافض، وسائر المبتدعين الذين لا هدف لهم سوى الإضلال والإخراج من الدين القويم، فمتى تساهل المسلمون وانشغلوا عن هؤلاء اليتامى والمعوزين انتهز هؤلاء الأعداء الفرص وتقبلوا رعايتهم، فبذلك يخسرهم المسلمون، بل يصبحون حرباً على آبائهم وإخوانهم، وأقاربهم وأسلافهم الذين هم من رجال الدين وأعوانه . والواقع يشهد بذلك، فإن النصارى يبثون دعاتهم في الأقطار الإسلامية، ويمدونهم بالأموال الطائلة، فيقومون بتأسيس المدارس لجميع المراحل، وتلقين أولاد المسلمين مبادىء النصرانية وعلومها مجاناً؛ كما يقومون ببناء المستشفيات والعلاج

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧ .

(٢) سورة الإنسان، الآية ٨ .

(٣) سورة الحشر، الآية ٧ .

(٤) سورة الأنفال، الآية ٤١ .

فيها مجاناً، ليكسبوا بذلك قلوبهم، ولينشئوا الأطفال في بيئة بعيدة عن الإسلام وعلومه، ومن ثم يميل هؤلاء الفقراء واليتامى إلى النصارى، لما رأوا من جهود أهل النصرانية، وهكذا يفعل دعاة الروافض في استجلاب العامة إلى معتقدهم الزائغ بهذه الحيل والأسباب، ولقد قرأت سابقاً في مجلة المجتمع العدد (٦١٦) وتاريخ ١٤٠٣/٦/٢٨ هـ ما نصه : « ففي الوقت الذي تعمل فيه الدوائر التنصيرية على تنصير المسلمين في مخيمات اللاجئين في الدول المجاورة لأفغانستان، وإغرائهم بالابتعاد عن ساحات الجهاد، تقوم الشيوعية الملحدة وبمختلف الوسائل لتحويل أبناء المسلمين اليتامى إلى الشيوعية، فقد أفادت الأنباء مؤخراً بأن قوات الاحتلال السوفييتي أرسلت ومنذ ثلاث سنوات أكثر من سبعة وعشرين ألف طفل مسلم أفغاني عنوة إلى موسكو، بهدف تغيير معتقداتهم » ا هـ. أفلا يكون المسلمون وأهل السنة أولى بالاهتمام وبذل الجهود في تنشئة وتربية الأطفال، حتى أولاد الكفار والمشركين الصغار الذين لم يزالوا على فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإن هناك دولاً كثيرة تعاني من الفقر والفاقة، والشدة والحاجة الشيء الكثير، مع بقائهم على الملل الكفرية، وكثيراً ما تجري بينهم الحروب والمنازعات التي لا يكون الهدف منها سوى الأغراض المادية البحتة، ففي تلك الحال يسهل اقتناص شبابهم وأطفالهم، وتنشئتهم على الإسلام الذي هو دينهم بأصل الفطرة، وذلك يحتاج إلى تكريس جهود مخلصة، وإلى أموال طائلة تبذل في سبيل الله، وفي بناء المساجد، وفتح مدارس خيرية، وطبع المصاحف وتوزيعها

بين المسلمين، وترجمة كتب العقيدة والتوحيد بشتى اللغات، وتفريقها هناك، والحرص على إبعاد أولئك الأطفال والشباب عن المجتمعات والبيئات الكفرية، وتعليمهم اللغة العربية، فمن ثم يتم التأثر، ويقوى الإسلام وأهله، ويكثر معتنقوه، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، بدل ما هم يخرجون منه أفواجا، وبقوة الإسلام والمسلمين يتم الأمن والاستقرار، ويحيا المسلمون الحياة الطيبة، ويردون غزو الأعداء وفتكهم وحيلهم التي قد نجحوا في الكثير باكتساح كثير من بلدان المسلمين، وكثير من القبائل والأسر التي أصبحت معهم، وتدين بمعتقداتهم السيئة . فمتى يفيق المسلمون من هذا السبات والغفلة ؟! فالله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه وسلم .